المكابر الخامس
«لئن لم تنته لأرجمنَّك»

رجل تظهر عليه صفات الصدق والإخلاص، وينطق وجهه بالسماحة والحلم وحسن الخلق.

رجل مؤمن بالله عز وجلَّ، رأى علامات الحق ظاهرةً في كل ما يدور حوله في هذا الكون الفسيح.

رجل أطلعه الله على بعض أسرار هذه الحياة. وأراه ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين.

كل الكتب التي تتحدث عنه تؤكد أنه رجل كريم ذو صفات خاصة ترفع بين الناس مقامه، وتحبِّب إلى من يستمعون إليه كلامه، ويمنحه كلٌّ من رأى وجهه المشرق تقديره واحترامه.

حينما ينظر إليه ذو القلب السليم، وذو النفس المشرقة، وذو الحسِّ الصادق، يميل إليه قلبه، ولا يملك إلا أن يحبَّه، وأن يصدِّق حديثه، وأن يجعله قدوة صالحة يقتدى بها.

إنها صفات ممتازة يتوق إليها كل إنسان سويٍّ في هذه الحياة.

رجل بعثه الله برسالته، وأوحى إليه ما أوحى من أمور الدين الإسلامي الذي تصلح به حياة الناس وآخرتهم، اختاره الله لرسالته، وكان صدِّيقاً نبيًّا، صادقاً مخلصاً.

obeikandl.com

جـرت له مع النـاس مـواقف ومـواقف، واعـتـرض حـيـاته مـا اعترضها من الأحداث الجسام، والمشكلات العظام، ولكنه من أولي العزم من الرسل.

ما رأيكم في رجل هذه صفاته؟

ألا يستحق التقدير؟ أليس جديراً بالتصديق؟

أليس مؤهلاً لقيادة الناس إلى النجاة؟

ماذا سيفعل أحدنا لو لقي رجلاً بهذه الصفات؟

كأني بنا جميعاً نقول: نصدِّقه، ونتبعه، ونحبُّه ونقدِّره.

ماذا لو كان أحدنا أباً لهذا الرجل؟

كأني بكم تقولون:

للأب أن يرفع رأسه بين الناس حينما يكون له ولد بهذه الصفات، له أن يفخر، وله أن يقدِّر وله أن يعيش حياته سعيداً راضياً مستبشراً لأنه أب لرجل عظيم.

صدقتم، هذا هو الحق.

ولكن هذا الرجل الذي ذكرنا من فضله ما ذكرنا عانى أشد المعاناة وأقساها من جحود أبيه وعناده ومكابرته وعدائه.

كان أبوه عدوَّه الأوَّل الذي وقف في وجهه بقسوة وكذَّب ما جاء به بمكابرة آذت نفس هذا الرجل الكريم، وملأت قلبه حسرة وألما.

obeikandl.com

لقد سجَّل القرآن الكريم لنا موقف هذا الأب الذي كابر وعاند في أكثر من سورة.

إن ذلك الرجل الكريم هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم الذي حاول بكل ما أوتي من حبّ لأبيه، وصدق في عاطفته، وإخلاص في دعوته، أن يسعد أباه بانتمائه إلى الإسلام، ولكنَّه لم يفلح فوقف حزيناً يتأمَّل حالة هذا الأب المكابر الذي قال لابنه البارّ الصادق الكريم: «كلا».

أه من «كلا» هذه التي تنطلق سهماً قاتلاً إلى قلب خليل الله إبراهيم عليه السلام.

ما اسم أي إبراهيم؟

قيل هو: «آزر» كما ورد في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: 74].

فهل اسمه آزر؟

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إنَّ أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، إنما كان اسمه تارح، وقال في قوله تعالى: ـ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزرـ يعني بآزر الصنم، أما أبو إبراهيم فاسمه تارح، وامُّه اسمها مثاني، وامرأته اسمها «سارَّة» وأم إسماعيل اسمها هاجر وهي سرية إبراهيم عليه السلام.

وقال بعض المفسرين، إنَّ آزر اسم صنم وليس اسماً لأبي إبراهيم، وإنما ذكره لأنه قد غلب عليه لأنه كان يخدمه.

وقيل: إن معنى آزر هو: معوجّ، قاله إبراهيم وصفاً لحالة أبيه.

وأنا أميل إلى ما قاله صاحب كتاب قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار، من أنَّ إبراهيم كان أحلم، وأرفع من أن يقول لأبيه كلمة نابية، فهو يحاول أن يدخله في الإسلام، وحينما أبى وعاند استغفر له وهو على كفره.

وإن كان ابن جرير الطبري يرجِّح أن يكون آزر اسماً ثانياً لأبي إبراهيم، أو يكون أحدهما لقباً له.

ولن نسترسل في هذا الطريق، لأن المهمَّ في الأمر هو الحديث عن مكابرة «تارح» وعناده لولده إبراهيم.

لقد كان الحقُّ واضحاً أمام الرجل، وهو أعرف الناس بابنه وأقرب الناس إليه، ولكنَّ المكابرة حجزت بينه وبين رؤية الحق والإيمان به.

وإني لأعرف فيمن عرفت رجلاً ذا صلاح وعلم ودعوة مقبولة عند الناس، كان يعاني من جحود أبيه ومحاربته له ما لم يكن ليخطر لي على بال لولا أنني رأيته.

وكنت أرى من حسرة الابن الداعية، وحزنه الشديد ما يجعلني شديد الإشفاق عليه.

وإن هذه الصورة الواقعية لتقرِّب لي صورة أبي إبراهيم عليه السلام الذي أنكر دعوته ولم يؤمن به، وتشعرني بشدة الألم الذي كان يملأ قلب خليل الله عليه السلام.

إن مما ضاعف المأساة في هذه الحالة هو أنَّ والد إبراهيم كان عابداً للأصنام، متخذاً لها آلهة من دون الله، أي أنه «كافر» مكابر، وهذه الصورة شديدة الإيلام لنفس الإبن البارِّ الحريص على نجاة أبيه.

إنه الضَّلال المبين الذي كان عليه أبو إبراهيم وقومه، وهو ضلال سابق لدعوة إبراهيم، فلما جاء إبراهيم عليه السلام بما جاء به، استمرَّ ضلال أهل الضلال.

وهنا ـ في هذه الحالة ـ تبرز المكابرة التي تجمِّد الأحاسيس، إنَّ إبراهيم عليه السلام قد أصبح صدِّيقاً نبيًّا، وصار لديه من العلم والمعرفة التي منَّ الله بها عليه ما يجعله قادراً على أن يقدِّم الدواء لداء الجهل والضلال.

كان أبوه هدفاً أوَّل له، لأنه أقربُ الناس إلى قلبه، ولأن حقَّه على ابنه أكبر وآكد، ولأن الأقربين أولى بالمعروف.

ولربما كان الأمل كبيراً في نفس إبراهيم الخليل عليه السلام قبل أن يصدمه أبوه بمكابرته وعناده، ولهذا وجَّه إليه خطاباً مباشراً مشحوناً بالمودَّة والحرص على الهداية، مقدَّماً بصيغة الاستفهام المشوب بالعتاب والأمل:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: 42-45].

إن في تكرار هذا النداء الشجيِّ المغموس في نبع العاطفة الجيَّاشة «يا أبت» ما يؤكد لنا عمق المشاعر التي كان ينطلق منها إبراهيم عليه السلام في خطاب أبيه.

«يا أبت» مفتاح رائع من مفاتيح العاطفة الأبويَّة التي تستقر في قلب «تارح» أبي إبراهيم، ولكنَّ المشكلة تكمن في «المكابرة» التي لا تسمح لهذا المفتاح ولا لغيره من المفاتيح أن يقوم بدوره في فتح الأبواب المغلقة.

إنها النبوة في أسمى مراتبها، وإنَّه البرُّ بالأب في أجمل صوره، وإنه الإحساس بالمسؤولية في أعلى درجاته.

● ***تساؤل شجيٌّ حزين:***

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢] إنه لشيء محزن أن يقع الإنسان العاقل في هذا المستنقع الآسِنِ من الكفر بالله العلي القدير، وعبادة جمادات لا تعي شيئاً.

تساؤل قادر على هزِّ القلب من داخله، لو سلم من حاجز المكابرة الغليظ.

● **خبرٌ مؤكد صحيح تبنى عليه نتيجة مهمة:**

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: 43].

النبوة حقيقة، والرسالة واقع ثابت، وفي النبوة والرسالة من العلم ما لايملكه إلا النبيُّ المرسل، ومادام الأمر كذلك فإن الهداية إلى الصراط السويِّ هي النتيجة.

يالضياع المكابر ويالسوء خاتمته.

● **نهيٌ عن شر متحقق يهلك الإنسان:**

﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: 44].

الشيطان هو الذي يقود المكابرين والمعاندين، وهو الذي يخرّجهم في مدرسة الذنوب الشيطانية التي افتتحها منذ أبى واستكبر فلم يطع أمر ربِّه، ولم يسجد لآدم عليه السلام ولذلك فإن من يعبد غير الله إنما يطيع الشيطان، فهو يعبد الشيطان الرجيم.

مدرسة خبيثة ممتدَّة عبر أزمان طويلة.

ولكن القلب المكابر لا يفقه.

● **خوف من النهاية المؤسفة:**

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: 45].

obeikandl.com

إن الأب المكابر قد أصبح مغلق التفكير في هذه الحالة، فلا فائدة من النداء يا أبا الأنبياء.

بعد كلِّ هذه النداءات المضيئة بالحب والصدقِ.

كان الجواب صدمةً للابن الحريص على نجاة أبيه:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46].

كأنه لم يسمع من ابنه كلمةً واحدة، بل هو لم يسمع ـ فعلاً ـ وأنَّى له أن يسمع وفي أذنيه وقر، وفي قلبه حجاب كثيف من مكابرة ومعاندة..؟

لقد حاول إبراهيم عليه السلام أن يحاصر أباه من كل نواحيه، من القلب والعقل والنفس، فعاتبه، وأخبره ونهاه وعبر له عن شعوره الصادق نحوه حينما أعلن له أنه يخاف عليه من عذاب أليم.

كل ذلك أصبح هباءً أمام المكابرة التي أمسكت بتلابيب «تارح» عقلاً وقلباً ونفساً.

مع كل هذا العناد، وبعد كل هذه المكابرة، وقف إبراهيم عليه السلام شامخاً بصبره، ورفقه وعطفه وشفقته وحبِّه للخير.

﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: 47-48].

﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: 47].

ماأجملها من كلمة تدل على قلب رحيم.

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: 47].

ما أعظمها من جملة تعبر عن كرم الطبع وسلامة الصدر والحرص على الخير.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: 48].

ياله من بيان واضح يدل على البراءة من الكفر وأهله مهما كانت أوصر القربى.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: 47].

لولا المكابرة والعناد لكان لهذه الكلمة بعد ذلك الحوار الطويل أثرها الكبير في نفس «تارح» ولأحدنا أن يتخيل نفسه في ذلك الموقف، يدور حوار شديد بينه وبين آخر، ثم يسمع من الآخر كلمة «سلام عليك».

ماذا سيصنع؟

لاشك أنَّه سيلين، ويقدِّر صاحبه أعظم تقدير.

﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: 46].

هذه الكلمة التي قالها أبو إبراهيم عليه السلام له بعد الحوار الذي دار بينهما تؤكد مدى المكابرة عنده التي جعلته يقول لفلذة كبده هذه الكلمة الجامدة.

obeikandl.com

هل يعني بذلك الرجم بالحجارة؟

أم الرجم بالكلمات سبَّاً وشتماً؟

لا فرق بينهما في ميزان الحكم على موقف الرجل، فالمهم هنا أنها كلمة نابية تدل على شخصية مكابرة.

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ﴾ [مريم: 47].

أي سأسأل الله تعالى أن يهديك، ويغفر ذنبك، فلن أتوقف عن الاستغفار لك لعل ذلك ينجيك من العذاب.

وروى المفسرون أن إبراهيم ظلَّ يستغفر لأبيه المكابر مدَّة طويلة.

حتى بعد أن هاجر إلى الشام.

وبعد أن بنى المسجد الحرام.

وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام.

وقد بقيت هذه سنَّة اتبعها المسلمون في بدايات الإسلام حية استغفروا لقراباتهم وأهلهم من المشركين، وذلك اقتداءً بإبراهيم عليه السلام، حتى أنزل الله سبحانه وتعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: 4].

يوضح ابن كثير في تفسيره معنى هذه الآية قائلاً: إن الله سبحانه وتعالى وجَّه المسلمين إلى الاقتداء بإبراهيم في براءته من الكفر وأهله. واستثنى من ذلك استغفاره لأبيه في قوله: إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك: أي لا تتأسوا وتقتدوا به في هذا.

بيَّن تعالى أنَّ إبراهيم أقلع عن استغفاره لأبيه في قوله:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: 113-114].

وفي هذا دليل قاطع على سموِّ روح إبراهيم عليه السلام، وارتفاعه إلى درجات العطف والرحمة والمودّة العاليات، حيث ظلَّ يستغفر لأبيه، حتى نهاه الله عن ذلك فانتهى.

أما «تارح» فقد كابر وعاند حتى أحرق جميع أوراق نجاته في الدنيا والآخرة، وأغلق بمكابرته على ابنه المحبِّ لأبيه المشفق عليه كلَّ أبواب الأمل في نجاة والده.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم»:

ألم أقل لك لا تعصني فيقول له أبوه:

فاليوم لا أعصيك

فيقول إبراهيم:

يا رب، إنك وعدتني أن لاتخزني يوم يبعثون، وأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله:

إني حرَّمت الجنة على الكافرين.

ثم يقال:

يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟

فينظر فإذا هو بذبح متلطِّخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.

قال ابن كثير بعد رواية هذه الحديث:

وقد رواه البخاري في قصة إبراهيم منفرداً.

صورة أخرى من صور المكابرين القاتمة ظهر أمامنا صاحبها في أسوأ حال، بعد أن أضاع كلَّ الفرص التي كانت متاحةً أمامه للنجاة.

اللهم إنا نعوذ بك من خاتمة السوء

يا رب العالمين

opeikandl.com